العرب
الإثنين 2021/11/08
السنة 44 العدد 12234

الكاظمي وأبطال الحجارة

إبراهيم الزبيدي
كاتب عراقي

يقال "لكل زمان دولةٌ ورجالُ"، وعلى هذا أصبح لدولة العراق الجديدة، هذه الأيام، رجالها الذين يشبهونها.

فمن عجائب العراق السبع أن الذين كانوا بالأمس يدافعون عن المنطقة الخضراء، ويخافون على هيبة العملية السياسية، ويمنعون العاطلين عن العمل والمطالبين بلقمة العيش من الاقتراب من بواباتها، ويكمنون لنشطائهم، ويغتالون أشجع شبابهم بالكواتم أو بالسكاكين أو بالرصاص الحي، هم الذين يتظاهرون، هذه الأيام، ويغلقون بوابات المنطقة الخضراء، ويرمون ضباط جيش العملية السياسية وجنودها بالحجارة، ويهتفون ضد رئيس حكومتها، ويتهمونه بالتآمر والخيانة والعمالة للأجنبي، ويطالبون الهيئة المستقلة للانتخابات وقضاء فائق زيدان ومدحت المحمود بالعدالة والإنصاف وهم صاغرون.

وبتدقيق المواجهات الجارية وأساليبها وأدواتها لا بد من ملاحظة أمر مهم. فالظاهر أن إيران غير داخلة في حرب الحجارة الدائرة بين مصطفى الكاظمي وبين ميليشياتها، وأنها مكتفية بمراقبتها عن بُعد، وانتظار نتائجها، بالتي هي أحسن.

فلو كانت هذه الحرب هي حربها لوجدتم فيها اختلافا كبيرا، ولكان لها شكل آخر وطعم مختلف.

فالمعروف والثابت أنها لا تستطيع أن تتحمل تبعات خروجها من العراق. وإذا ما لاح لها خطر جدي وحقيقي على وجودها، من أي نوع ومن أي لون، فلن تدع وكلاءها المسلحين يحاربون، وحيدين، وبدون مرشد أو معين، فيرتكبون الحماقة تلو الحماقة، ويتهورون، فيصنعون هزيمتهم على مراحل، ويتسببون لها بنهايةٍ مهينة تعني لها الكبير والكثير.

فالوليُّ الفقيه المصرُّ على إعادة إحياء عظام الإمبراطورية الفارسية وهي رميم، ورئيس الجمهورية المتمرس بالقتل الجماعي، وحرسُها الثوري المُصدّر الأول للموت إلى دول الجوار، لن يخوض حربا بالحجارة، ولا حتى بالمسيّرات الفاشلة التي لا تصيب الهدف.

فليس مستبعدا أن تكون ضرورات إنجاح مفاوضات الملف النووي الإيراني مع الولايات المتحدة قد تطلبت من إيران أن تقدم تنازلا في العراق، يجعلها تقف على مسافة واحدة من المتقاتلين، وتنتظر النتيجة، ما دامت وصايتها الحالية المالية والأمنية والسياسية ماشية على الحكومة والشعب، وبلا ميليشيات، ولا مواجهات، ولا انتفاضات، ولا وجع رأس.

ففي نظر الحرس الثوري لا توجد هناك خيبة وحماقة وغوغائية أكثر من إقدام أبنائه الخاسرين في الانتخابات على تحميل شاحنات عديدة بالحجارة، وجعلها خلف المتظاهرين (السلميين) لاستخدامها في مقاتلة جيش الحكومة وقواتها الأمنية المسلحة.

ثم حين أدركوا أن الحجارة لم تنفع، وأنها ارتدت عليهم، وجعلت جنود الكاظمي يشتمون خامنئي والحشد الشعبي وهم يرمونهم بالرصاص الحي، أقدموا على حماقة أكبر وأكثر خيبة، فأرسلوا ثلاث مسيَّرات إلى منزل عدوهم لاغتياله، أملا في خلط الأوراق وإدخال الوطن في دوامة عنف تنتهي بغزوهم المنطقة الخضراء، وتسلّمهم السلطة، على طريقة رفاقهم الحوثيين.

إن الاشتباكات المسلحة التي جرت على بوابة المنطقة الخضراء الرئيسية، بالحجارة وبالرصاص الحي، ومحاولة الاغتيال هي إعلان رسمي عملي عن فك الارتباط بين الميليشيات وبين الحكومة وجيشها وقواتها الأمنية، وحتى القضاء.

فمن الطبيعي أن تُتّهمَ الميليشياتُ الولائية بتدبير المحاولة. فليس غيرها من يملك المسيّرات، خصوصا وأن قيس الخزعلي، رئيس عصائب أهل الحق، أحد فصائل الحشد الشعبي الموالية لإيران، كان قد حذر، في تغريدة الجمعة الماضي "من محاولات أطراف مرتبطة بجهات مخابراتية تخطط لقصف المنطقة الخضراء وإلقاء التهمة على فصائل المقاومة".

وهنا نتوقف. فسواءً ثبتت التهمة على الفصائل أو لم تثبت، فإن قادتها بتصرفاتهم وانفعالاتهم وتهديداتهم، أثبتوا أنهم نتوءات طفيلية غوغائية نبتت في غفلة من الزمن على جسد المجتمع العراقي، وقد آن لها أن تقتلع من جذورها.

والآن، وبعد ما جرى وما سيجري في قادم الأيام، صار واضحا أن العراق مقبل على فراغ برلماني وحكومي قد يدوم طويلا جدا ويبقي رئيس الوزراء مصطفى الكاظمي، والرئيس برهم صالح يديران الدولة دون برلمان، بحكم الأمر الواقع، ووفق ما نص عليه الدستور. وهذه خسارة أخرى تضاف إلى خسارة الولائيين تجعلهم أقل حظوة لدى حكومة الولي الفقيه، فلن يتحقق الوصول إلى تشكيل الكتلة الأكبر، لا من الخاسرين ولا من الفائزين.

فجماعة محمد الحلبوسي والكتلة الكردية في مأزق لا تُحسدان عليه. فلن تجرؤ أيٌّ منهما على الانحياز إلى جبهة نوري المالكي وهادي العامري وقيس الخزعلي، فتخسر جمهرة الفائزين لأن انحيازُهما لمعسكر الولائيين يعني معاداة الشارع العراقي ومواجهةً خاسرة مع قوة برلمانية فائزة قد تعرقل تشكيل البرلمان.

كما أن انضمامها إلى جبهة مقتدى الصدر الذي يجاهر بمنع تدخل الدول الجارة في شؤون العراق، وبسحب سلاح الميليشيات (الوقحة)، وبمحاكَمةِ المختلسين، والتحقيق في قتل المتظاهرين، سوف يضعهما في مواجهة الميليشيات وإرهابها ومسيَّراتها، وهو ما سوف يؤدي بالضرورة إلى عدم اجتماع البرلمان لانتخاب رئيسه ورئيس الجمهورية. وهو ما يعني بقاء العراق ربما شهورا عديدة في دوامة عنف دائرة ودائمة لا تنتهي في زمن قصير.

وقد تكون تغريدة الكاظمي على تويتر بعد نجاته من محاولة الاغتيال إعلانا عن مرحلة ملاحقة أبطال الحجارة، "كنت وما زلت مشروع فداء للعراق، وصواريخ الغدر لن تثبط عزيمتي".

وفي بيان شديد اللهجة، وصف مجلس الوزراء محاولة الاغتيال بـ"الإرهابي الجبان"، واعتبرها "استهدافا خطيرا للدولة على يد جماعات مسلحة مجرمة قرأت ضبطَ النفس والمهنية العالية التي تتحلى بها القوات الأمنية والعسكرية ضعفا، فتجاوزت على الدولة ورموزها، واندفعت إلى التهديد الصريح للقائد العام".

إذن، وأيا يكن ما ستأتي به الأيام القادمة، فإن مسيرة الألف ميل نحو خلاص العراق من كوابيسه المسلحة قد ابتدأت ولن تتوقف بأي حال من الأحوال.

سفارة أخرى للسعودية في لبنان

علي الصراف
كاتب عراقي

الآخذون بلبنان إلى جهنم، يمكنهم أن يهنَأوا بها وبه. والذين يستمرئون معاداة السعودية لمماليء إيران وحزب الله، يمكنهم أن يقولوا ما شاء لهم الهوى عن "البدو". لا توجد مشكلة. الحقيقة النهائية هي أن السعودية "صحت على زمانها" أخيرا، ولم تعد تقبل أن يُنظر إليها كمصدر للمال، لا مقابل الكلام المعسول، ولا مقابل شراء المواقف. والدعم الذي كان يبدو سخيا ومجانيا، لم يعد مناسبا. هل تعرف لماذا؟ لأن "البدو" لديهم ما يعملونه لأنفسهم بأنفسهم. لديهم مجتمعات يريدون تنميتها وتطويرها. ولديهم تحديات اقتصادية واجتماعية وثقافية يريدون التغلب عليها. كما أن لديهم ما يتعين أن يحافظوا عليه، ومكانة تستحق أن تُراعى، ليس كقوة "دعم"، وإنما كقوة بناء وإعادة إعمار. وهم يكتشفون للمال دورا آخر. ببساطة، صاروا أكثر تحضرا وانتسابا للعصر ممن ينظرون إلى خرابة الولي الفقيه على أنها هي الأمل المرتجى.

الذين اختاروا أن يخوضوا معارك إيران في المنطقة، والذين اختاروا أن يتوقفوا عند فكرة "إنه لا سبيل لتجاوز حزب الله" (وهي فكرة يتبناها نجيب ميقاتي أيضا)، يمكنهم أن يهنَأوا بعدم تجاوزه.

السعودية، ودول الخليج الأخرى، قررت التجاوز. نقطة رأس السطر. والمقاطعة السعودية للبنان، التي بدت "قساوة غير مفهومة" من وجهة نظر وزير الخارجية عبدالله بوحبيب، ليست كافية في الواقع، على الأقل حتى يقول بوحبيب ما الذي يقف وراء قساوته هو، أو يعترف بأن قائده الحقيقي ليس ضميره، وإنما حسن نصرالله.

ولكن، هذا كله في كفة، وحقيقة أن السعودية لا يجب أن تخرج من المعركة في كفة أخرى.

لبنان لا يُترك. ليس من أجل لبنانيين آخرين يرزحون تحت وطأة المظالم فحسب، بل من أجل الدور الإقليمي للسعودية أيضا.

والإعلام هو أحد أوجه المعركة. وطالما أنها ليست معركة دبابات ومدافع، فإن الإعلام هو سيدها.

تستطيع السعودية أن تسحب دعمها لبعض المشاريع الإعلامية التي ترى أنها غير مؤثرة. إلا أنها لا تستطيع أن تدير ظهرها لتكتفي بفضيلة الصمت. وليس من الواقعي، أن يبقى "تيار المستقبل" يترنح في الإعلام كما يترنح في السياسة، ومثله التيارات المسيحية المناهضة لهيمنة إيران.

لنتحدث طائفيا. أي باللغة التي يقوم عليها لبنان. لا بأس بذلك، طالما أن هذا هو الواقع. سنة لبنان ومسيحيوه ودروزه هم عصب الدولة الحقيقية في لبنان، وهم قوة التغيير أيضا. حزب الله وحركة أمل يمكن تجاوزهما بهذه القوة. وعندما انحسر تأثير السنة والمسيحيين والدروز، أصبح حزب الله "قوة لا يمكن تجاوزها"، بحسب المفهوم الذي يكاد يتحول إلى "قاعدة دستورية" بالنسبة إلى طبقة السياسة السائدة اليوم، وهي بالإجمال، طبقة خاضعين لهيمنة حزب الله.

مقتل حزب الله الحقيقي هو طائفيته بالذات. ويحسن دفعه بها قدما. وبدلا من المزاعم الوطنية التي تتيح له التمدد في بيئة السياسة اللبنانية ليقيم تحالفات وجسورا عابرة للطوائف، فإن السنة والمسيحيين والدروز، يمكن أن يعودوا إلى نصب الحواجز الوطنية، لكي تضع حزب الله عند حدوده الطائفية.

لبنان، بمسيحييه وسنته ودروزه، يستطيع أن يضع حدا لهيمنة حزب الله، عندما يستعيد عصب البناء الأول وهو قدرته على إعادة تأصيل المفاهيم الوطنية لصالح دولة لا يعلو فوق مشروعها أي مشروع.

المشروع الوطني الذي قاده رفيق الحريري، انتهى إلى هزيمة منكرة. ليس لأنه مشروع خاطئ، بل لأنه أتاح لعتاة المشروع الطائفي الشيعي أن يتمددوا إلى أرض الآخرين بزعم أنهم "وطنيون"، من قبل أن يتم نزع سلاحهم الطائفي لحساب سيادة الدولة.

المشروع الطائفي الإيراني، يمكن مواجهته بتجديد عقد التحالف الوطني بين السنة والمسيحيين والدروز. هذا المشروع هو العصب الذي قام عليه لبنان المستقل أصلا. ومن شاء أن ينتسب له، يتعين عليه أن ينزع سلاحه لحساب سلطة الدولة أولا. هذا هو الشرط الذي لم يقدر رفيق الحريري، وسط غبار الخراب، أن يفرضه على حزب الله وحركة أمل.

في لحظة ما من التاريخ بدا عقد التحالف بين السنة والمسيحيين والدروز وكأنه مشروع غلبة أهملت شيعة لبنان. فصاروا "وطنيين" بدوافع الحاجة إلى الانتماء إلى بلد لا يواجهون فيه التهميش. ولكن المنقلب الآخر، هو أن حزب الله ارتد على هذه الوطنية ليقلبها إلى مشروع طائفي متطرف، موال لإيران، ولا يأبه للبنان كله. ولكنه ظل يستخدم "الوطنية" كغطاء، يعرف الجميع أنه مهلهل وكاذب ومنحط.

مشروع وطني يقوم على العصب الأصلي، من دون أن يغلق الأبواب على أحد، هو ما يتعين أن ينهض الآن. وهو ما يتعين أن يكسب المساندة.

والإعلام هو أرض المعركة الأولى، التي يحسن السيطرة عليها، لكي لا يبقى إعلام إيران هو الذي يفرض مفاهيمه.

مقاطعة الطبقة السائدة، لا يكفي أن يكون مجرد رد على إساءات صارت تمارسها هذه الطبقة "عفو الخاطر" وكأنها تحصيل حاصل. بل ويمكن القول إن السفارات الخليجية لن تعود إلا بعدما يتحرر لبنان من هيمنة حزب الله والاحتلال الإيراني.

ولكن السؤال البديهي التالي هو: كيف يتحرر لبنان؟

يوجد للسعودية سفراء كثيرون في لبنان. كل الذين يعانون من المظالم، وكل الذين يرون إلى أين قاد حزب الله هذا البلد، هم سفراء ويجدر أن تتوفر لهم القدرة على أن يُبقوا صوتهم مسموعا.

العشرات من الكفاءات الإعلامية اللبنانية تنتظر أن تتوفر لها الفرصة لخوض المعركة. والعديد من المراكز القائمة الآن يمكنها أن تستنهض إمكانياتها التي تواجه الشح.

لبنان يمكن أن يُقاطع دبلوماسيا وتجاريا، ولكنه لا يُقاطع أهليا. كل طوائف لبنان غير الخاضعة لحزب الله، تبحث عن سبيل لكي تتحرر من الهيمنة، بالضبط مثلما تبحث السعودية ودول الخليج الأخرى عن سبيل لاستعادة مكانتها المسلوبة وصوتها المقموع.

والمدخل الأول لذلك هو لملمة شتات الكفاءات الإعلامية حول مشروع وطني يرتكز على عصبه الأول، من دون أن يغلق الباب على أحد.

والأمر لا يتعلق بانتخابات مقبلة لا يمكن خوضها من دون إعلام يفتح أبواب الأمل بلبنان حر، ولكنه يتعلق بمستقبل شعب لا يستحق أن يُؤخذ بإساءات مأجورين، أو يُترك بلا صوت مسموع.

عزل حزب الله أمر ممكن. وهو ليس جزءا من النسيج اللبناني. هذه كذبة كبيرة. إنه جزء من النسيج الإيراني.

يمكن لشيعة لبنان الذين يوالون هذا الحزب على حساب بلدهم، أن يهْنأوا بجهنم التي اختاروها لأنفسهم. ولكن يجب منعهم من فرضها على الآخرين.

كيف؟ بسفارة مرئية ومسموعة ومقروءة تجرؤ على مواجهة المشروع الإيراني بمشروع وطني بديل.

للسعودية سفراء كثيرون في لبنان، كل الذين يعانون من المظالم وكل الذين يرون إلى أين قاد حزب الله هذا البلد هم سفراء، ويجدر أن تتوفر لهم القدرة على أن يُبقوا صوتهم مسموعا